غياب

حسين البرغوثي-الغائب

سيكون بين اللوز

كنّا نعرف، وكان يعرف، أن أيامه في هذه الدنيا قليلة. كان التواطؤ لعبة مقبولة ومتبادلة، ليصبح الكلام عن المرض مجرّد إشارة عابرة في نقاش أكثر جدية حول قضية من قضايا المعرفة. فتلك هي ميزة حسين البرغوثي: محاولة القبض على المعنى، لا عن طريق اقتصاد المقايضة الثقافي، بل بواسطة الاستثارة الذهنية، التي ترفع من شأن كيفية تحقيق المعرفة، ولا تحجم عن التساؤل حول أدواتها، لتحقيق متعة عقلية خالصة، قد تصل الذروة في خلاصة ما، أو ما يشبه الخلاصة.

وقد كان، بهذا المعنى، وسيلة إيضاح حيّة وحيوية، لما ينبغي للمثقف أن يكون عليه، في ثقافة يلتبس فيها الفرق بين منتج الأدب ومنتج المعرفة، بقدر ما يتعلق الأمر بتعريف مفهوم المثقف. فمنتج الأدب ليس مثقفا، بالضرورة، خلافا لمنتج المعرفة، الذي يستمد ضرورة دوره الاجتماعي من ذلك التعريف، ومن كون الهم المعرفي شرطا من شروط وجوده.

قد يتمكن شخص من الجمع بين الصفتين، وهذا أمر شائع، لكن التلازم ليس شرطا في جميع الأحوال. ولعل ما يعزز من الطلب الملح على ضرورة التلازم تلك الرومانسية، غير المبررة حسب ميشيل فوكو، التي يعزوها الأدب لنفسه، وإشكاليات الدور الاجتماعي للمثقف.

لكن حسين البرغوثي حقق ذلك التلازم الدقيق، فعمل في حقل الشعر، كمن يحاول البرهنة على ما ينبغي للشعر أن يكون عليه، بقدر ما يتعلق الأمر بعلم الجمال، وكتب في حقل السيرة الذاتية، كمن يحاول البرهنة على نجاح النص المفتوح في تبديد وهم التضارب بين الفلسفة ولغة الشعر، وكتب للمسرح بطريقة تمكنه من تفسير عبارات قد تبدو عادية بتأويلات مستمدة من الميثولوجيا الإغريقية، وفلسفة الأنوار الأوروبية، والثقافة العربية الكلاسيكية.

وهذه وتلك معارف كان بتكوينه الأكاديمي المحترف يعرف الفرق بين الكلام عنها عن طريق السماع، أو المصادر الثانوية المختزلة، وبين الإطلاع عليها حسب الأصول، بقدر ما يستدعي الأمر من تعب العين، ووجع القلب، وكد الذهن. وهذا ما فعله، دائما، بطريقة مدهشة في كتابات ونقاشات أنفق فيها ساعات طويلة من عمره القصير.

سأل حسين البرغوثي في غرفته بمستشفى الشيخ زايد في رام الله، قبل وفاته بيومين عن دراسة قدمها «للكرمل» بعنوان «قصص من زمن وثني». كانت الكلمات تخرج من فمه بصعوبة،

لكنه كان مهتما بفتح نقاش عن الدراسة، وعن موعد نشرها في «الكرمل». وهي، بالمناسبة، أخر ما كتب، ويحاول من خلالها استبطان العصر الجاهلي، وعلاقة أوزان الشعر بميثولوجيا الشرق الأدنى القديم، بطريقة سردية يمارس فيها دور الراوي، ويتقمص شخصية مراقب عاش في ذلك العصر.

ربما تبدو أشياء من نوع الرأي، أو موعد النشر، أو نقاش أساطير العصر الجاهلي، بلا أهمية بالنسبة لشخص يحتضر، لكن حسين البرغوثي كان مخلصا لما عاش به ومن أجله، أي قضية المعرفة، حتى الرمق الأخير. كانت الأسئلة، ورغبته الحارقة في نقاش أعلى من الكلام عن المرض والعلاج، طريقته في إضفاء المعنى على ما تبقى له من وقت قبل الرحيل. لذلك، كانت سنوات ما بعد اكتشاف المرض هي الأكثر كثافة وحيوية في نشاطه الأدبي والفكري، الذي توّجه بسيرة ذاتية هي الأجمل بين ما كتبه الفلسطينيون في هذا السياق.

ففي «الضوء الأزرق» استدار إلى زاوية مهملة في موضوع السيرة الذاتية، وهي استبطان شخصيات هامشية، وحياة لا تحفل بتغيرات دراماتيكية كبيرة من نوع الحروب والكوارث، لتحويل الهامشي، وما يشبه الراكد، إلى موضوع لتأملات فلسفية وجمالية عميقة وذات طبقات متعددة من المعاني. وهي طبقات بررّت للبعض تفسيرها كتجربة صوفية، لكنها لم تلك كذلك. فالصوفية تشترط الميتافيزيقا، رغم ما تتسم به من حسيّة عالية في تجلياتها الأدبية على الأقل.

ولم تكن الميتافيزيقا، بالمعنى الفلسفي، هما من همومه، بل كان الواقع، وما ينطوي عليه من احتمالات تمكّن بصيرة نادرة من القبض على بعض معانيه. وتلك معادلة سبق لغسان كنفاني إيجازها في عبارة بديعة: في الواقع خيال أكثر من الخيال نفسه، وفي الخيال واقع أكثر من الواقع نفسه. وذلك ما برهن عليه حسين البرغوثي بالتدليل على كثافة المعنى المضغوط في كينونة لا تلفت الانتباه.

ولعل تلك العلاقة العميقة والمعقدة بالواقع هي ما يفسر تمرده عليه، بقدر ما يتعلق الأمر بالمعرفة، أو بنمط الحياة والتقاليد اليومية والمهنية المألوفة بالمعنى الاجتماعي. فالمؤسسة الأكاديمية الفلسطينية لم تستطع التعامل معه، ولم يكن في هندامه وسلوكه وأفكاره ما يساعدها على تحقيق قدر من المصالحة.

لا يصعب العثور على أشخاص اشتروا شهادات مزيفة لإضافة لقب الدكتور إلى أسمائهم، أو حصلوا على شهادات قليلة الأهمية حرصا على اللقب في مجتمع يقوم على الوجاهة والتراتبية شبه الريفية. لكن حسين البرغوثي كان من طينة لا تغويها الألقاب والوظائف، ولا تستكين إلى قوالب متعارف عليها، بل تنتج نموذجها الخاص، ومثالها الفريد، الذي ينسجم مع فكرة البطل ـ الضد، أكثر من انسجامه مع فكرة المواطن الصالح.

وبهذا المعنى كان نموذجا خاصا، ومثالا فريدا لما ينبغي للمثقف أن يكون عليه، وبهذا المعنى، أيضا، يُقاس حجم الخسارة التي لحقت بنا، في زمن يحفل بالخسارة. ومع ذلك، ورغم ذلك: كان، دائما، ما سوف يكون. عاش كما شاء، وعاد إلى ظلال اللوز، كما شاء، لكن ظله فينا وبيننا سيبقى كبيرا بحجم غيابه. في هذا الملف تقدم «الكرمل» آخر ما كتب حسين البرغوثي.

سأكون بين اللوز (٣)

حسين جميل البرغوثي

بنينا حلمنا، أنا وآثر وبترا : بيتاً جديداً وصغيراً وأبيض، في حرش زيتون، قرب قمة جبل برية. هذا هو بيت اسمي،

«وبيته في آخر البيوت.. »

أقعد على فراش أو على كرسي قش، في فيء زيتونة مقمرة، قرب «البيت الذي قرب الرمل»، كما يسميه آثر، وأحدق إلى الأودية، وهياكل شجر غامضة تشبه كائنات بدائية تحرس «خط الشفا» (الأفق) الذي يفصل قمة الجبل عن السماء. كلما أرى هذا الخط أتخيل أغنية فيروز:

«كنا أنا والليل نمشي عالهدا

ويقللي : لعتّم الدنيا عليْك، تعندهن توصل وما يشوفك حدا. »

وفي المنفى، كتبت أغنية عن «خط الشفا» هذا (عن قاطع طرق، يغني لـ «سبعة» ـ أنثى من إناث السباع التي نسيها الله في هذه البراري):

«مرّة القمر وقفْ معي وقفة عراس الجبلْ

فرسي معي

فرسي الأصيلة، والبارودة، والعباية، والشنبْ مفتولْ

ـ عمّكْ حطّ قلبه في الشنبْ لما فتلْ ـ .

واقف لحالي مثل لحراشْ : جامدْ عشعراتي الندى

واقف لحالي

والهوا شمالي، وعبالي تيجي شغلات جوّا القلبْ

مدفونة ما شافا حدا.

نزلنْ سبعْ دمعات ودمعة
ـ والدمعْ غالي، يا «سبعة» ـ واسمعي:
عمّك حياته قاسية!

فرسه معه
فرسه الأصيلة والبارودة والعباية
ـ عمره ما طاق الذل بين الأراضي الواطية ـ . »

هكذا كان «خط الشفا» في مخيلتي، ثلاثون عاماً في منفى طوعي، وهكذا كان «خط الشفا» في مخيلتي. والآن، وأنا قاعد في فيء الزيتونة المقمر، تخيلته «سلّماً: كان الفراعنة القدماء يعتقدون أن السماء الأولى من حديد، ومن يريد الصعود إليها يصعد عن قمم الجبال، سلالم الروح. وأشعر الآن بخوف ما من هذا الخط، ومن هياكل الشجر البدائية والغامضة عليه. وساوس تطفح من ذهني. من يدري، مثلاً، ماذا يسري في هذه البقعة اللامرئية بين التراب والظلال المقمرة، من قوى خطرة؟ قد تتقلب أفعى «زعراء»، أراها. أعني أن ذهني يسيل عقارب وأفاع، أحياناً، وتلزم قوة روح كي أهتف:

إليكِ، فإني لست ممن إذا اتقى عضاض الأفاعي نام فوق العقاربِ
وإلا سينام ذهني فوق عقاربه، فرحاً لأنه نجا من أفاعيه!

عدت ولم أعد إلى هذا الجبل. كأني عدت، ولكن لم أعد. لا سلام هنا، وأرغب في بناء سياج فاصل بيني وبينه. عند «خط الشفا» تبدو أكثر النباتات إلفة غريبة، وبدائية، وغير محددة الملامح، و«يغني الجبل»: فتفيض عنه أصوات وحوش لم أعرفها من قبل، وأخرى أعرفها، تأتي من الأودية، ومن خط «الشفا»: نباح كلاب مصروعة تحاول أن تنهش وحشاً آخر، وبرجمة حمام من عش فوق سطح البيت، وثعالب، وحفيف نسناس، وخطى قطط برية، وعزف ناي يبدو وكأنه من كهف في الذاكرة. وفوق هذه الموسيقى التصويرية الغريبة، قمر أحمر حمرة داكنة، ومستدير، يشبه وجه إلهة صامتة، مغمضة العينين، تتأمل فوق قمة الجبل، وتصغي إلى أزيز صراصير مستمر يشبه خلفية ناعمة لهذه الموسيقى التصويرية الغريبة ذاتها. كل نغمة توحي إليّ بأن لا تنم في فيء زيتونة مقمرة في هذه البقعة من اللامكان، ولا تتسكع بعيداً عن البيت الذي قرب الرمل، لأن الزهور البرية المتوحشة نفسها ستفتح قدميك لكي تشوبها حمرة القمر هذه!

وبسبب من إلتهاب الرئة، والقصبة الهوائية، تخرج مني عندما أتنفس أصوات أغرب من «غناء الجبل»: حشرجة تشبه حيواناً أسطورياً جريحاً، ونداءات تشبه صهيل حصان يأتي من

البطن، وهكذا، وهكذا. وتتداخل الأصوات كأن غابة في حنجرتي.

في البدء كنت أميز بين غناء الجبل وبين أصواتي، ولكن صرت أرتبك كثيراً في المدة الأخيرة. يكون الجبل صامتاً، والقمر الأحمر مغمض العينين، وفجأة تأتي من أغوار الأودية أصوات غريبة ليست لإنس ولا جن، فأصغي. وبعد قليل أعرف أنها من حنجرتي، وصدري، بسبب من ضيق التنفس. ولم أعد أعرف الفرق بين وحوش الجبل، وأوتار صوتي. هل بدأت أتوحش، أم أستألف الوحوش؟ وكأن الجبل في بطني، هو ووساوسه. فضوء القمر الهادئ هذا قد يتخثر إلى عقرب، أو أفعى ملونة تخرج من عرق الزيتونة، إن غفوت، وقد يأتي ضبع ينهش ما عاد مني. ومن يدري، قد يغتالني أحد ما، عند هذه الحافة النائية. عدت ولكن لم أعد.

وقفت في شباك مضيء قليلاً، في البيت الذي قرب الرمل. في أي شباك وقفت؟ وفي أي زمن؟ ومتى كان ما كان؟ لا أدري. ولكن كنت أرى الزيتونة منه. وأفكر في هذه العودة إلى السكن في ريف رام الله عودة غير محكمة الحبكة. جاءت ثعالب خمسة، بعضها أسود، وبعض أقرب إلى الأحمر. وأخذت تلعب تحت الزيتونة ذاتها، وتحتل نفس الحيّز الذي كنت فيه. لعبت بالمخدة زمناً، وجرتها هنا وهناك، ثم جرت فراشي كله من تحت الزيتونة إلى بقعة في وسط الخلاء. سحبته إلى بقعة أدق، بقعة في اللامكان. عدت، ولكن لم أعد. وأدركت الثعالب هذا.

كل ليلة هكذا، يطغى عليّ شعور بتخلع المكان، وتخلع إدراكي له. نسناس بوجه بومة يأتي كي ينبش في كيس قمامة رميته هناك، وقطط برية تعبر بعيداً عني، بحذر.

مرة جاء من جهة الوادي غناء كائنات يشبه عرس جن، بدفوف ونايات، أو زعيق طيور بحر، ومشى الغناء صاعداً نحو «خط الشفا».

ليس هذا «جبل الذاكرة» الذي أعرفه، بل أقرب إلى «جبل الآلهة»، جبل يحلم عرس جن، ويحلمني. لما تناهى الغناء الغريب، واختفى عند وجه القمر الأحمر فوق «خط الشفا»، جاء ثعلب أسود، ورفع أذنيه وكأنه يصغي للريح، ثم رآني تحت الزيتونة. كنت قريباً منه، ولكنه أدرك أنني غير قادر على الهجوم على أي كائن، كائناً من أو ما كان، فمرق عني وكأنني أقل من شبح. وأمام البيت، على حجر في رذاذ ضوء أصفر شاحب، كان يقف نسناس يمط رقبته عالياً، ويحاول أن يرى ما في الداخل، ثم يتجمد من رؤاه.

والمرض، كالزمن، «يكسر الزوايا الحادة» فينا جميعاً. فبدوت في نظر نفسي ظلاً مقمراً أحمر آخر، واقفاً فوق صخرة عند «خط الشفا»، وقد تأخذه هبة من هواء، أو تحمله أغنية ناعمة.

والجبل كله ظلال، ربما لذهني ووساوسه. وعليّ تعلم فن «ملاكمة الظلال». ولكن، في هذه البقع الموحشة، لا أحد يجرب سيفه في هباء، أو يطارد أشعة القمر برمح خشب. أقعد وأفكر في قوة الظلال التي تسيل مني، وحولي. لا يكفي أن تبني «بيتاً جديداً»، يجب أن تبني روحاً جديداً.

ثلاثون عاماً في المنفى، وأنا من «عبدة النار»، من قبيلة تجوب البحر على ظهور السفن. كنت كما كنت، واحداً ممن كانوا كما كانوا:

« .. سليقة كل نهر لا يفتش عن ثبات
يجرون في الدنيا لعل الدرب يأخذهم إلى درب النجاة من الشتات. »

ورجعت إلى هذا «البيت الذي قرب الرمل»، عبر «درب النجاة من الشتات»، الذي بدا درباً نحو «المحدود» في التجربة، والمتناهي فيها. هل هذا صعودي، أنا الظل المقمر الأحمر عند «خط الشفا»، إلى سماء الحديد الفرعونية، أم هبوطي من هناك إلى درك سفلي، أي هل رجعت بسبب من طفح في القوة، قوة فائضة فيّ، أم من كثرة «الإنهاك»؟.

|

عليّ العودة نحو الطفل الكامن فيّ، لكي أمشي في الأرض طفلاً ـ نبياً، إن لم يكن في حياتي الحاضرة، ففي حياتي التالية. نظرت إلى آثر، إبني الذي كاد أن يصل الرابعة الآن، وهو يلعب قربي، تحت فيء الزيتونة المقمرة. منذ مدة وأنا أحاول أن أتعلم منه العودة إلى الطفل ـ النبي الكامن فينا كلنا.

رأى غمازة طائرة حمراء، تضيء وتخبو، من هذا النوع الذي يستعمله الإسرائيليون الآن لتصفيات نشطاء الإنتفاضة. كانت مارقة قرب القمر، وتغمز، كعين إلكترونية تتشبه بالحوريات. سألني: «حسين، هذه الطائرة من شو؟». «من حديد.» «وهل يخاف القمر من الحديد؟». «نعم، نعم. يخاف القمر من الحديد».

كل طفل ساحر بدائي. وله عصا كعصا موسى، من كلمات مسحورة. أول لفظة لفظها آثر كانت ال «طائرة»، ثم «القمر»، وال «هلال». كان يقول عن الهلال إنه «يشرب الحليب، ويمشي معي، إلى أمه القاعدة على رأس الجبل.» وبنى أسطورة من كلماته، من أسماء الأشياء كما تبدو لأعينه المسحورة. من «طائرة»، و«حديد»، و«خوف»، تناسلت أسطورة «القمر الذي يخاف من الحديد.» لغة ساحرة في أسطورة أكثر سحراً. الطفل يرى بعيون مسحورة. جنين عراف. كان آثر صغيراً، لا يفقه اللغة بعد، في غرفة مضاءة بشموع، ويحدق في ظل غامض بين الكرسي والجدار. وكان يتفلت مني وكأنه يرى معجزة في الظل، وضحكت منه. «هذا ظل، محض ظل، لا شيء هنا، عم تبحث؟». كان أصغر من أن يفقه قولي. وفجأة خطر ببالي سؤال غريب: ماذا أقصد أنا، حين أقول «هذا محض ظل، ولا شيء هنا؟». وبدا لي أنني أعمى، وأنه يرى عوالم كاملة لا أراها، وتعودت عليها. لا شيء هنا؟ من قال هذا؟

من زمن وأنا أراقب لغته. مرة سمعني أشتم شركة الكهرباء لأن النور انقطع. كنا في بئرزيت، أيامها. وسقطت ثلوج كثيرة كسرت الصنوبر والسرو في الحرش. نظر من الشباك إلى الثلج على الشجر المتكسر، وشتم «شركة الثلج»، وشركة «البرد»، ورأى شركة لكل شيء: للقمر شركة، وللنجوم شركة أخرى.

كان نائماً في حضني تحت النجوم، ويحرك أصابعه قائلاً لها: «قلت لكُنّ لا تلعبن وحدكن في الشارع»، ثم يقول أن يده تركته ثم ذهبت إلى النجوم. ومرة أخذته إلى «القدس القديمة». فوقف في باب «خان الزيت» ـ سوق مسقوف أشبه بدهليز يعج بالحناء، والذهب، والسائحات، والجنود،

والرهبان وهكذا، وهكذا، فارتجف مرتعباً، لأنه اعتقد أن خان الزيت كله «مصعد كهربائي»، ممدد أفقياً، ورفض دخوله.

ومن رؤى من هذا النوع، يبني أسطورته الخاصة. ولا أحد يشبه أحداً هنا. لكل حكايته. وما هي حكايتي مع هذا المكان؟ حدقت في «خط الشفا» شارداً، وسألت نفسي، كأنني آثر، «حسين، هذا شو؟». وجاء صوت من الذاكرة يكرر: «خط شفا، خط شفا.» فرد الطفل النبي الكامن فيّ: «طيب. وخط الشفا هذا شو؟».

أحدق في فيء الزيتونة المقمر وأسأل، «حسين، هذا شو؟. فترد ذاكرتي: «فيء زيتونة مقمر». فتضحك ثعالب الجبل وتقول: «لا. لا. هذا الفيء عقارب، سيل عقارب. ولكنك تصر على أنه فيء زيتونة مقمر. ليس لديك ذكاء قلب!».

أعدنا أيها البحر القديم إلى «وشاح الحور أخضر في الرماد، وفي رؤى شعرائنا»! إنس يا حسين أحباء ماتوا في البحر والسفر، وصاروا «شجرا من المرجان في القيعان». وعد إلى أوّلك!.

|

برج آثر الحوت ـ برج مائي متقلب، وفنان بطبيعته ـ.

سافرت معه إلى باريس، قبل مدة. هناك، في بيت المخرج المسرحي، فرنسوا بو سالم، سمعت تسجيلاً لـ «أغنيات الحيتان الزرقاء».

الحيتان الزرقاء مذهلة. لسان حوت صغير منها أثقل من فيل. ولها نتوء فوق الأنف تستشعر به أمواج الجاذبية الأرضية، فحساسيتها للجاذبية أكثر من الإنسان بخمسة وعشرين مليون مرة. وهذه الثدييات تغني، في أغوار المحيطات، مارقة بين بحارة غرقوا وصاروا «شجرا من المرجان في القيعان»، بتنويعات على أكثر من أربعمائة صوت، غناء يبدو قادماً من بطن الكون، ومن قلق لم يحلم به حتى السحرة، وأيقظ فيّ هذا شعوراً لا عهد لي به، من تلك الأيام الكنعانية في «الإينوما إيليتش»، حين لم يكن هناك بعد اسم للسماء ولا للأرض، والكون محض عماء.

وبرج الحوت الأزرق، عندي، مائي، وفيه أربعة أنواع من الإلهام. مثلاً، ميز لوركا بين أربعة أنواع من الإلهام الفني:

عند العرب، حين يلهم اللّه مغنياً، يهتف الناس «الله! الله! يا شيخ». ويدعو العرب هذا «طرباً». كان في مدينة البتراء معبد يشبه معبد ديونيسيوس، إله الخمرة، والسكر، والرقص، والموسيقى، والنشوة، الذي يجعل الكرمة تورق في خشب سفينة. وكانت العرب تقول عمّن مسّه جنون ديونيسيوس هذا «لقد بطر»، نسبة إلى «بترا»، التي كانت العرب تلفظها «بطرا». وتحرفت اللفظة إلى «طرب».

أما في إيطاليا فالإلهام «ملائكي»، والملائكة أبرياء إلى حد البلاهة، وتلميحات إلى حالة بيضاء، لا تعرف الخير والشر، بعد، فهي أشبه بـ: «مطر ناعم في خريف بعيد». ولكن الإلهام عند الاغريق «قمري». فربات القمر التسع ـ الميوزات ـ هن من يلهمن المغني، وينفخن من أنفاسهن في فمه. هكذا يبدأ هوميروس، مثلاً، ملحمة الأوديسة، بأن يسأل «الميوزات» أن

يلهمنه، أو حتى أن يغنين، بدلاً عنه. ولكن نفسهن بارد، ويمنحهن لوركا «نصف قلب من رخام»! والرخام لا يرقص، ولا ينبغي له، فيه صيغة «عاقلة»، ربما، وجامدة، خطوط مستقيمة، وزوايا، وهندسات، إلهام بارد!.

أما الإلهام في إسبانيا، فشيطاني، يدعى الـ «دويندي»: ويشبه زجاجاً مسحوقاً في الدم، لأن الميت في إسبانيا أكثر موتاً من أي ميت آخر في العالم حيث لا يوجد بلد فيه الموت مهرجان شعبي إلا في إسبانيا: مصارعة الثيران. الموت والحب يجتاحان الروح هنا، كما في قول لوركا، في «قصائد الأغنية العميقة»، مثلاً،

«خنجر
يدخل القلب كمحراث
يدخل الأرض الخراب.

لا !
لا تغمده فيّ !

والخنجر
مثل شعاع شمس
يشعل التجويفات.

لا !
لا تغمده فيّ ! »

برج الحوت الأزرق، كما قلت، مائي، فيه نفحة من كل أنواع الإلهام هذه. فيه شيطانية الـ «دوندي»: يشعر بكل كيانه، وكأن عقله أحشاء قلبه، وإن كتب، فإنه يكتب بالدم ـ وهذه خير كتابة، كما يقول نيتشه. «فاكتب بالدم، لكي تعرف أن الدم أيضاً روح! ». وفيه من الميوزات حس بـ «المقياس»، و«الحدود»، و«النظام». من هذا النوع الذي جعل ليوناردو دافنشي، على ما أعتقد، ينحت تمثالاً سحر الناس بجمال أنفه، فكسر أنفه بمطرقة لأنه أراد أن ينحت تمثالاً جميلاً، لا أنفاً جميلاً فقط. ويحن الحوت الأزرق إلى أن يطفح وراء أي حد، ومقياس، ونظام. فيه حس ما ورائي، مجنون، بالحرية. حس نجده، مثلاً، في موسيقى زياد رحباني. ومن العرب، فيه هذا الذي نهتف عندما نسمعه «الله! الله! يا شيخ! ». وفيه بياض الثلج، ونقاء الملائكة.

ودائماً ستجده يلعب عند هذه الحافة الشفيفة بين المسمى، واللامسمى، عائداً إلى هذا الزمن الكنعاني عندما لم يكن هناك بعد اسم للأرض أو للسماء، والكون عماء. إنه برج الطفل النبيّ.

والطفل النبي ليس «طفلاً»، بل حوتاً أزرق سبح في الأغوار، بين بحارة صاروا شجراً من المرجان في القيعان، وعلمته الرقص متاهات كبرى، أي نضج، وبعدها رجع طفلاً. ومن أسمائه الـ

«عبقري»، عند بودلير، والـ «عراف»، عند رامبو.

ويحب الحياة أكثر مما يمكن لأحد أن يتخيل. يشبه اللقطة الأخيرة في فيلم «الراكض على نصل (الخنجر أو السكين)»: لقطة لإنسان ـ آلة، على ظهر ناطحة سحاب، تحت زخات مطر، وقد بقيت له عدة ثوانٍ فقط ليموت، وفي يده ألد عدو له، إنسان ما، فيقول لعدوه هذا: لن أقتلك، لأنني أحببت الحياةَ أكثر مما يمكن لك أن تتخيل، ويفتح يده نحو السماء الماطرة، فتطير منها أسراب حمام أبيض، أبيض، أبيض. يا إلهي كم كان الحمام أبيض، أبيض، أبيض. وبرجه، عندي، «الحوت الأزرق».

|

مثلاً، زارنا فرنسوا في البيت الذي قرب الرمل. وجد في الجبل سنبلة يابسة، أعطاها لآثر قائلاً: «هذي شو؟». فكّر آثر قليلاً وهو يقلبها بين يديه، ثم أجاب: «هذه؟ لكي نقرع بها الجرس!». «أي جرس؟» «جرس العالم». «وكيف صوت جرس العالم؟». ضحك، وقلد صوت سيارة اسعاف كان سمعه لما زارني في مستشفى رام الله.

الطفل، بطبيعته الأولى، والبدئية، يرى الدنيا بطريقة «ملتوية». هذا فن. كان لوركا يقول إن الفن «تجنب»، كما في مصارعة الثيران: فأي أبله يمكنه أن يلقي بنفسه إلى التهلكة على قرون الثور، ولكن الفن أن يلقي الميتادور (مصارع الثيران) بنفسه على القرون، ثم يتجنبها، في آخر برهة. وهذا الجبل «قرن ثور»، وعليّ أن أتجنبه في آخر برهة. وأن أراه بطريقة «ملتوية»، كطفل.

مثلاً، صرت أتخيل، كآثر، الجبل «جرساً» من نحاس أحمر، جرساً مقلوباً، ونباتاته وصخوره مسبوكة من نحاس، وتلمع تحت قمر أحمر يبدو مثل وجه إلهة مطرقة ومغمضة العينين. وأتخيل أنه سيرن، لو مشيت أنا وآثر عليه، كأننا «سنبلة تقرع جرس العالم». لو مشينا عليه، قرب خط الشفا، سيتخلص الجبل من «ثقله»، ويرن، يرن، كأن خطانا عليه عصا من نحاس في يد كبير من كبار موسيقاريي الجن. وتأتي الغريريات مسحورة برنينه، والثعالب، والأفاعي، والناس، وكل كائنات هذا الجبل، وتسمع هذه النغمة الجديدة لذاكرة عادت إلى أولها، ويمتد الجبل فيها، كأصوات الوحوش الممتدة في حنجرتي.

نعم، نعم، نعم. ما دمت لا أميز بين أصوات تفيض عن حنجرتي وصدري، وبين أصوات الوحوش هنا، أي ما دام صوت الجبل يمتد في صوتي «مدّ الزيتون في الزيت»، فأنا هو، وهو أنا، ونحن معاً جرس العالم، أو «برقية الحنطة في مرج الرصاص».

ولأنني منحاز للحنطة، أمسكت آثر من يده، ومشينا نحو خط الشفا. سنتوغل في الذي يخيفنا، في «الحديد» الذي يخاف منه القمر، لكي نسبك منه عودتنا إلى ناي «قدورة» أو ربابته، بالجرأة.

فجأة سمع صوت وحش غريب. «حسين، هذا شو؟». «لا أدري». قبض على يدي خائفاً وقال: «ارجع، ارجع.» ورجعنا. فشلت العودة! وفي نفس الليلة التي أتحدث عنها، جرّت الثعالب فراشي نحو هذه البقعة التي قال لي عندها «ارجع، ارجع.»

فتحت الراديو لأستمع للأخبار. المستعمرون يحرقون جبل زيتون في قرية ما في الشمال. وتخيلت المشهد: الدخان والنار، والريح تسفوهما في الأفق، والوهج يضيء الأودية في نسخة أخرى، ومن نوع آخر، عن فيلم «الصحراء الحمراء». قال آثر: «حسين، لا تسمح للراديو أن يتكلم عالياً.» «لماذا؟» «ستخرج منه حية!». طيب. طيب. وضعت شريط موسيقى. «حسين، في الموسيقى صرصور.» يا إلهي من هذا البيت الذي قرب الرمل! عدت ولكن لم أعد!.

|

لا يعود أحد إلى أوّله، ولو لماماً، إلا إن عاد إلى تاريخه، إلى نفسه في تاريخه. مثلاً، كنت أبحث عن مدينة لاسمي. وفقط في التاريخ يمكن أن تكون لأي اسم مدينته. مثلاً، في «البتراء»، هذه المدينة التي نحتها في الصخر الوردي «نحاتو الزمن» من العرب القدماء.

هناك، وأنا قاعد مع بترا وآثر، أمام «أعمدة الخزنة»، وأراقب سائحاً «يعشق جمع الصور»، وجملاً عليه سجادة بدوية مطرزة بأشكال هندسية، وكلباً ضخماً للحراسة، شعرت أنني ابن هذا الإرث. وتتأرجح روحي أمامه بين الصخر والرماد، بين الأهرامات والأغاني العابرة. من هنا جاء الخط النبطي الذي جاء منه الخط العربي الذي أكتب به. نحتوا مدينة في الصخر، وأخرى في الخط. وأنا؟ من مواليد «خارج الزمن»؟ بقي لي جمل يركبه سائح في عنقه كاميرا؟.

خسارة، قلت لنفسي، أن تمر على سطح الأرض، ولا تغير شيئاً، أو تترك أثراً، خسارة، يا ابن هذا الإرث العظيم! خسارة أن تولد وتموت في زمن مهزوم، بوعي مهزوم، وخائف، وحتى اسم ابنك، «آثر»، حسبوه «آرثر»، اسماً غريباً، اسم من استعمروك، ولم يخطر ببال أحد أنه من «لسان العرب»! خسارة أن تفقد نفسك إلى هذا الحد. هل هذا التشرد من التاريخ، أو «فيه»، هو ما يجعلني أبحث عن مدينة لإسمي، ولا أجدها؟ سر تشرد اسمي نفسه؟.

في مدخل البتراء دفعت «ثمن تذكرة» للدخول، ثمناً عالياً لا يدفعه إلا سائح أجنبي، وعبثاً حاولت أن أقنع الموظف أنني لست «أجنبياً»، عن إرثي، وإرثه! عندما يفقد أحد ماضيه تماماً، تستطيع أن تصنع بمستقبله ما تشاء، لأنه قد فقد «ظله» الممتد في التاريخ. هذا الصخر الملون في بتراء ظلي، أنا الذي قدره فقط أن «يراقب»، و«يرى»، و«يمر»، ولا «يتدخل»، ولا ينحت، ولا حتى يحتج، ويحمل ورماً ملتهباً، سيلاً من خلايا حمراء في فلقة رئته اليسرى.

بقي لي جسدي، من كل هذا الإرث، بقايا جسدي، بالأحرى. بقايا تشبه أغنية فيروز:

«يا شجرة الإيام، غيّرنا الهوا فرفطلنا الورقات وعرينا سوى
يا شجرة الواقفة بمهب الهوا مثلك أنا: شجرة على مفرق طريق!»

هذه أغنية جسد شلح تاريخه أو شلحوه إياه، ويشعر، تحت هذه الزيتونة المقمرة، أنه «خارج الزمن»، وحده، ليس حلماً، بل انعكاس حلم. والفرق هنا «حرف راء» به يصبح آثر، مثلاً، «آرثر». ما دام الحاضر «قرن ثور» عليّ أن «أتجنبه»، كي تستقيم رؤاي.

منذ زمن وأنا أطير كعصفور سفته الريح، بطريقة «مائلة»، وأتجنب، كي أرى. مثلاً، تعرفت على زوجتي، بترا، في ستوديو كنت أسكنه في رام الله. وقبل أن تأتي، وأتعرف عليها، كنت،

ليلاً، أرقب ظلي على جدران البيت، تحت ضوء شمعة، وأشعر وكأنني هو، أو كأن ظلي هو الذي يرقبني، وأبدو «مسطحاً»، مثل هذا العرّاف الجاهليّ، «سطيح»، الذي كان يطوي جسمه كثوب ويمكن أن يرتبه في خزانة.

وعندما تنقطع الكهرباء، مثلاً، تغمر العتمة كل شيء، تختفي كل ظلالي، ويبقى جسد ـ كتلة صماء لا ظلال لها، أتحسسها وكأنها جدار من الإسمنت الخشن. شعري نفسه بدا وأنه ينمو من جلدي كالأقحوان، والسنابل، وكأنني حقل، أو تل أثري، أوليس هذا حنيناً إلى التاريخ؟. وفي ليلة ما، في حمام الأستوديو هذا، وقفت أمام المرآة، تحت إضاءة كهربائية صفراء، خافتة: وحدقت في وجهي، وكأنني شخص آخر.

كان شعري طويلاً جداً، وأشقر وأجعد، ويتدلى ضفائر على كتفيّ، وكان مبتلاً، والماء يقطر منه على عينيّ، وحواجبي، وشفتيّ. وفجأة رأيتني كث الحواجب، عجوزاً كهلاً وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً، بشفتين غليظتين في غاية الحمرة، وعينين غريبتين تسبران الغيب، ولا تريان ما أمامهما، وشعرت بأنني تايريزياس، عراف معبد دلفى، في القرن الرابع قبل الميلاد. لست من هذا الزمن. وبدأت أنشد من قصيدة «الأرض الخراب»، لـ ت. س. إليوت، «وأنا، تايريزياس، الذي رأى كل هذا..».

وخرجت من الحمام إلى ساحة مزروعة بالليمون واللوز، والنجوم، حول الأستوديو، وأنا أكرر: «وأنا تايريزياس الذي رأى كل هذا..» ورأيت رام الله، بنت هذا التاريخ المختل، وقلت: أنا الشاهد الأوحد. اللهم فلتشهد!

أتت بترا إلى الساحة. وتعرفت عليها بين اللوز. وتزوجنا. وأصبت بالسرطان. بدأ شعري يتساقط من العلاج الكيماوي. وقفت أمام مرآة أخرى في بيت آخر، وليل آخر، وضوء آخر، في بيرزيت، ولمست شعري: كان جافاً، ولا أشعر به، وشبيهاً بأسلاك معدنية دقيقة. وكلما وضعت يدي على خصلة شعر خرج بعض منه بين أصابعي، أو سقط في المغسلة. «وأنا، تايريزياس، رأيت كل هذا..» وقلت لنفسي: عد إلى تاريخك، «أنت وحدك عدم»، كما قال شكسبير، حتى تايريزياس كان الناطق الرسمي باسم الآلهة، وليس وحده.

حلقت شعري كله، بشفرة، وبزغت صلعة تلمع في صفرة الضوء، كهوية جديدة، ومدهونة بزيت الزيتون.. كنت تايريزياس الأكثر نضجاً، ولكن لم أدر ما اسمي الآن. ولا ما هي مدينة اسمي. وقهقهت من شكلي، وأناي وهناي، وما علي أن أكون.

كنت، في نظر غيري، ربما، صاحب شعر طويل، أشقر، محض متمرد ثورته لا تتجاوز شكل شعره. والآن يبزغ أصلع فقد «علامته المميزة». هويتي تأتي من تاريخي، وروحي، وليس من شعري وصلعتي. ولكنهم شلحوني تاريخي، ولم أعد إلا شجرة على مفرق طريق. والسرطان يحاول أن يشلحني جسدي؟.

فكرت، وأنا أحدق في المرآة، أن كل ما يلزمني ثوب طويل أصفر، يليق بعراف، أو بطفل نبي، وصندل جلد قديم، وأظافر أقدام فظة تصلح حتى لعبور المستنقعات، وأن أرحل، بحثاً عن اسم

لي، وعن مدينة لاسمي، في تاريخ هذه البقعة من التاريخ. سأمر على طيبة مصر، وبيبلوس، وبابل، وتدمر، وبتراء، والأندلس، ولو كان صندلي زنبقة بيضاء في خطوة من خراب.

مرت مدة وأنا أنادي على نفسي، بيني وبيني، باسم تايريزياس هذا. كنت أبدل اسمائي ومدن إقامتي، بالمناسبة. مرة كنت «مردوك»، كبير الآلهة البابلية، ومرة أمرأ القيس، ومرة غلاماً يروي شعر المتنبي في حانات حلب في العصر العباسي، ومرة عبداً أسود شارك في «ثورة الزنج» في القرون الوسطى، واشترته غانية من أصفهان، ومرة زرت «سيدوري» صاحبة الحانة في «ملحمة جلجامش»، ومرة صعلوكاً مع «الشنفرى» الذي

«يرى الوحشة الأنس الأنيس، ويهتدي
بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك».

ومرة كنت واقفاً مع خادمين من روما، أَمام باب قصر في مصر، عندما خسرت كليوباترا معركة «أكتيوما»، فمرقت مسيرة تنشد عن نصر وهمي:

يومنا في أكتيوما
ذكره في الأرض سار
سائلوا أسطول روما
هل أذقناه الدمار!

وسمعت خادماً منهما يعلق على النشيد لصاحبه، في مسرحية «كليوباترا» لأحمد شوقي،

«أنظر الشعب، دَيونَ،
كيف يوحون إليه!
يا له من ببغاءٍ
عقله في أذنيه!»

ويا إلهي، كم كنت وَحدي، أحياناً. وكأنني هذا الشاعر الذي كان يطوف في أصقاع موحشة لا أثر فيها لكائن حي، وفجأة:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ!

وهكذا، وهكذا. وأدركت أنني لست شَعري، في سفري، ولو سقط خصلاً خصلاً، ولا لحمي، ولو حرقوه في نار بوذية، ووضعوا رماده في إناء من التوتياء، وقالوا لي: «هذا رمادك فابك عليه». لا بد من حب، ومن جمال. «الجمال لن ينقذ العالم، ولكن الجمال في العالم يجب إنقاذه»، قال كاتب ما.

بعد ثلاثين عاماً من منفى طوعي عن الجبل، رجعت إليه، إلى جمال سبق ونسيته، أو حتى خنته. من يعرف من أهل هذا الريف أنني كنت في طيبة مصر، وجالست كهنة الكرنك، ورأيت خنزيراً برياً يقتل الإلهة «النعمان» في فيء الصنوبر في غابات لبنان فيبزغ من دمه قطيع الاقحوان، وضاجعت في ما بين النهرين عاهرة مقدسة عند النبع البارد قرب مدينة «أوروك»، ثم شربت خمرة، وأكلت خبزاً في «أورك»، لأن هذا هو سبر البلاد، وعاداتها الأولى؟ من يدري أين

كنت؟ لا أحد، ولا أحد سيدري أين أذهب!

وأخيراً ها أنا في البيت الذي قرب الرمل. كل ليلة تجر الثعالب فراشي من تحت الزيتونة المقمرة إلى وسط الخلاء. لم ألق لها أكلاً، ولا قمامة في كيس بلاستيك أسود، منذ ليال. ولم تجيء الثعالب، منذ ليال، أيضاً. وشعرت بعزلة، غريب كم شعرت بعزلة. كان بإمكاننا أن نكون أصدقاء، أنا والثعالب، والنسناس الذي يحدق فيّ كل ليلة، والقطط البرية، والأفاعي، والعقارب، ونمشي عند خط الشفا معاً. كان بإمكاننا. ولكن الثعالب لم تجيء، منذ ليال. وحزنت، وسهرت أنتظر منها أن تستألفني.

|

وبقيت قاعداً فوق كرسي قش في فيء مقمر، فيء من أيام البيزنطيين، فالزيتونة «رومية»، وأسمع عزف ناي غامض. وطلع الصبح عليّ. ضباب أبيض جداً بدا وكأنه تجمد في أغوار الأودية، وجلدي يستحم في لسعة برد منعشة، وبدأت عصافير تزقزق في الجنائن، وبداية شمس، ونمل بأجنحة، وحياة تستيقظ.

قرب البيت الذي قرب الرمل طريق من حصى أبيض، بدت شبه مقمرة، ربما من حمرة التراب حولها، في جنائن تين. فجأة لمحت شيئاً بنياً تحرك واختفى في الطريق. حدقت جيداً، في ضوء غامق، فرأيت حيواناً غريباً لم أره في حياتي أبداً، غريباً عن الجبل تماماً: أحمر حمرة داكنة أقرب إلى البني، وشعر ظهره يشبه مشطاً منفوشاً، وقائمتاه الأماميتان عاليتان. ضبع! يا إلهي! آجلاً أو عاجلاً سيأكل آثر، وقد يخطفه في ليلة ما. ولكن ساورني شك فيما أرى. الضبع أسطورة الجبل، ولكن هذا الكائن غريب عنه، وليس ضبعاً. حدقت أكثر.

خلفه حيوان صغير آخر، ابنه، ربما. أحمر حمرة داكنة أقرب إلى البني، مثله، ووجهه مغمور في ندى الطريق، ويشمشم شيئاً ما. وخطر ببالي أنني رأيت كائنات كهذه في كتاب «الصيد في الفن». هذا خنزير بري! ولكن قد يكون ضبعاً، فقوائمه الأمامية عالية كقوائم الضبع. لا، لا! هذا الشكل هو الذي رأيته في كتاب «الصيد في الفن»! خنزير بري! ولكن ماذا لو كان ضبعاً؟.

كنت منهكاً، من ورم في فلقة الرئة اليسرى ازداد إلى ٣٧ سنتمتراً مربعاً. مجرد المشي عشر خطى ينهكني. لا أستطيع دفاعاً، من أي نوع كان، لا عني، ولا عن آثر. مشيت في الجنائن نحو هذا الكائن. هكذا، عارياً من كل نية في أي عدوان، كنت أريد أن أرى وجهه، وهل هو ضبع أم خنزير بري. ونسيت تماماً أنني فريسة سهلة في كلتا الحالتين.

بدا وكأن قوة حب استطلاع خالصة لوجه اللّه تعالى تسوقني سوقاً إلى موتي. مشيت إلى الحيوان ببراءة تقترب من البلاهة. واقتربت، فانتبه. رفع رأسه عالياً، وحدق فيّ بين التين، ولكن لم أر وجهه بوضوح. حاولت أن أرى، فقط أرى. وفجأة غاص، نحوي، حافراً وعافراً حمرة التراب بظلفيه، ووجهه نحو الأسفل. بنطحة منه قد يكسر شجرة!.

وبقيت واقفاً. حركته بدت كوميدية، مخلّعة، وكأنه عجل، وليس وحشاً. ابتسمت من حركته. كان مندفعاً بكل كتلته. ولما صار على بعد عشر خطوات فقط مني، كنت لم أزل أحاول رؤية

وجهه. وقف تماماً. ورفع رأسه إلى الأعلى، وأذنيه. وحدقنا في بعضنا. كان وكأنه شم نواياي ـ للنوايا رائحة، كالعرق، والخوف، مثلاً ـ، ولم يعد يدري ماذا أريد منه، ولم أدر ماذا يريد مني بالضبط. وركزت في وجهه، هكذا، ببراءة، فازداد حيرة. نظرت إلى ابنه، أو ابنته، كائن أحمر صغير يمشي بسلام في الطريق البيضاء خلفه، ولم يزل يشمشم التراب بأنفه. وفهمته: هو أيضاً يدافع عن صغيره، ويحاول أن يطمئن على صغيره، الذي له «بيت قرب التين»، ربما.

وقفنا بين التين، زمناً، وحدقنا في بعضنا. وخطر آثر ببالي. استدرت ورجعت، ثم نظرت خلفي، فرأيته وقد استدار هو الآخر، ورجع. نظرت من الشباك إلى آثر وأمه: كانا نائمين، بسلام. وأردت أن أوقظهما كي يريا أصدقاءنا الجدد! نظرت إلى الخنزير البني: كان يمشي قرب صغيره ناسياً تماماً أننا التقينا، وكان بإمكاننا أن نكون أصدقاء.

|

فاستدرت إلى عالمي الخاص. كنت أحاول أن أتخيله، عم أمي، قدورة هذا، حين كان يعزف على ربابته فوق سطح «الدير الجواني»، ويشرف على أودية عميقة ومقمرة، وجنائن محروثة، ومزروعة. كنت أحاول أن أتخيله حين يشعل ناره، ليلاً، ويدخن «أرجيلته»، وأمي تحمل جمرة في ملقط إليه.

وسألتها، تحت الزيتونة المقمرة:

«هل كان يزوره أحد هناك؟»

«نعم، نعم. كانت ثقة الناس ببعضهم أكثر من اليوم، أملهم في بعضهم أكبر. كنا نترك المفتاح فوق الباب، ونضع «زير» فخار فيه ماء، في الخارج، لمن يأتي، كائناً من كان، كي يشرب.»

«ومن كان يزوره؟»

«الغجر.»

«غجر؟»

«نعم.»

«وهل كانوا يغنون ويرقصون حول النار في الجبل، ليلاً، وخيولهم تأكل علفاً قربهم؟»

«لا، لا! سمعت من شيوخ قبيلتنا عن غجرية كانت تأتي وتمشي على الحبل، وتغني، وعن رجل معه قرد يقوم بحركات بهلوانية، أو «صندوق عجب» يروي به سيرة بني هلال، وعن منجمين. كنت صغيرة، أيامها، وأذكر أن غجر الدير الجواني كانوا صيادي غزلان. ينصبون فخاخهم ويسهرون مع قدورة على سطح الدير.»

«وكيف كان يسهر معهم؟»

«يغني لهم على ربابته من سيرة الزير سالم.»

|

يقول غجر فلسطين إنهم عرب قدماء من «ربع جساس»، وطردهم الزير سالم من النقب، وسموهم «النَوَر» نسبة إلى النور، أو النار، ربما. ماذا كانوا يرون في النار، ليلاً، في الدير

الجواني، حين يحدقون فيها، ويسمعون سيرة الزير سالم؟ مدينة اسمهم»؟ وربابة قدورة، هل أرجعتهم على وتر مفرد نحو «أصلهم»؟ كانت عرافة نورية تأتي إلى بيتنا، وأنا طفل، بثياب ملوّنة، ووشم أخضر مثلث على ذقنها، ومعها «صَدَف»، وقواقع بيضاء، تنشرها على المصطبة، وتقرأ البخت. فتنتني غرابة عالمها. وبعد عقود، كنت أنبش في شعر الغجر وأغنياتهم في هنغاريا، وأزور حاناتهم، وأغانيهم، وأحببت من شعرهم قول باري كاروي،:

«يا اخوتي السبعة
وقد نثرتهم الريح، ليلاً، على صخور سبع
عليكم ألقي قميصي الوحيد.»

والعرافة لم تزل قاعدة في بداياتي، تنثر عدة أصداف على المصطبة، وتقرأ الهيئة التي ترسمها الأصداف،

«وأنت من وين؟
أنا من بلد الحكايات».

ولكي يكتمل الوهم الغجري، سماني أبي «النوريّ»، وقالت أمي إنني طفل جلبه الغجر معهم، ذات يوم. ومثلما كانوا يحدقون في النار في الدير الجواني، ووهجها يشع على حفر في ملامحهم، ويتذكرون أصل اسمهم، وفصلهم في «حكايات» الزير سالم، أحدق في ذكريات أمي عنهم، وعن ربابة قدورة، فأعثر عليهم في ذاكرتي قبل أن أولد! أي أن «بداياتي» ليست نقطة، بل نجمة مشعة!

وبعد عقود كتبت أغنية «عن أصلي النوري» هذا، «أصلي نوري، هذا قدري»، وأعيش على الأشياء القديمة، وعلى بيع الخيل، والعملة القديمة، وخلاخل فضة، وحكايات. وشاركت في فيلم وثائقي عن هؤلاء «الغرباء». يبدأ بلقطة لـ «نورية» تشبه تلك العرافة، حين تدخن، قاعدة أمام نار غامضة، وبوشم على ذقنها وشفتيها، وصوت عميق وأجش، وتتنبأ بأزمنة صعبة آتية ـ نبوءاتها من «سيرة الزير سالم». ولكن لقاءات الثقافة العربية والغجرية أقدم من هذا:

قيل إن الغجر وصلوا اسبانيا في ١٤٧٧ ميلادية، أيام حكم العرب للأندلس. ومن الأغنيات الشعبية الأندلسية والتراتيل الكنسية البيزنطية، وأغاني اليهود السفارديم، والعرب المسلمين، وأغنيات الغجر الغامضين هؤلاء، تبلور غناء متطور بلون روحي عميق يدعى «الأغنية العميقة» ـ ومن هذه جاءت «الفلامينجو».

وكتب لوركا أول ديوان شعر له مستوحى من هذه الأغوار التي لنا، نحن العرب، وللغجر، سهم فيها: «قصائد الأغنية العميقة» ـ عن نهرين لغرناطة: الأول يبكي والثاني من دم، وعن نهر له سوالف من ورق الزجاج، وعن

«بلد قديم
لمصابيح زيت، وحزن
بلد صهاريج عميقة

بلد
موت بلا عيون
وسهام. »
وعن عمياوات يحدقن في القمر. وهكذا، وهكذا. ـ
أحب لوركا. وقبل أن يولد آثر في مستشفى الهلال الأحمر في رام الله، فكرت أن أسميه «لوركا»، كي يرحل في مدينة اسمه، ويصل الأندلس، ويكون اسمه شبه هذا القمر الأحمر فوق الجبل، الذي يشبه إلهة مغمضة العينين وتتأمل، ويكون اسمه «واقفاً فوقه»، في حلمه، حين تأتي عرافة غجرية، وتغني له، بصوت كالحوريات، قول محمود درويش:
«وسآتي مثلما في كل ليلة
أفتح الشباك في الحلم، وأرمي لك فلّة. »
ثم تعطيه صدفة بيضاء تشبه هذا القمر الشاحب الذي يبدو «صدفة مغسولة بمياه الزمن حين ترتفع وتهبط بين النجوم، وتنكسر إلى دقائق وسنين». ويكون لتلك الصَدَفة رائحة أنثى، وملح بحري، وعطر إن شمه سوف تمشي روحه نحو الأندلس، ونحو «قصر الحمراء»، ونحو نهر له سوالف من زجاج. وتنتشر روحه من الأندلس حتى بتراء، ومن بابل حتى الكرنك، ومن الغجر حتى الزير سالم.
«وأنت من وين؟
أنا من بلد الشبابيك. »
وبداياتي ليست نقطة بل نجمة مشعة. ومن أشعتها الغجر الذين يعرفون أمي، وأرجيلة قدورة، وربابته، والدير الجواني، وأصلهم في حكاياته عن الزير سالم. وهذا أيضاً من التاريخ الذي شلحته، أو شلحوني اياه. خسارة، يا ابن هذا الإرث العظيم.
من يعرف من أين جئت؟ ولا أحد! ولا أحد سيعرف أين أذهب!
مررت على «الأغنية العميقة» هذه، وأنا عراف يلبس ثوباً أصفر، وتلتقي فيه جميع الأنهار، لكي يصبح «خريفية». قعدت، مرة، في الليل، عند الشاعر الأميركي، إدجار ألن بو، في القرن التاسع عشر، وهو يكتب قصيدة لها عنوان عربي: «العراف»، حيث «كل الطبيعة تحكي، وحتى الأشياء السامية ترفّ أصوات غامضة الظل من أجنحة رؤيوية». وحلمت بزيارة واحة «سيوه»، في صحراء ليبيا، حيث قيل إن الإسكندر المقدوني دفن هناك، حيث يوجد معبد أمون ـ رع، وقيل إن الإسكندر نفسه ذو أصل مصري. لي جذور في مصر، وفي الإسكندر المقدوني، في «ذي القرنين» هذا.
قيل:
كان «نيكتانيبوس» ساحراً مصرياً ـ حكم مصر في حوالى ٣٥٨ قبل الميلاد ـ وعرافاً، ومنجماً، ويمتلك القدرة على أن يجعل الناس يحلمون. ومن عاداته، حين يهاجم مملكة مصر عدو من البحر، مثلاً، أن يدخل غرفة خاصة بالسحر في قصره، ويصنع تماثيل صغيرة من شمع، للأعداء والأصدقاء،

ويضعها في وعاء ماء، ثم يرتدي ثياب نبي مصري، في يده قضيب من الأبنوس، ويدعو آلهة مصر، ومنها آمون أو آمين، كي تغرق بقوة الكلمات السحرية أعداءه في البحر أو في الإناء، لا فرق.

في ذات يوم لم يغرق تمثال واحد، وحاربت آلهة مصر في صفوف خصومه، فوق ذلك، وأدرك أن مملكته على وشك الزوال. فتنكر في زيّ إنسان عادي، وهرب في سفينة إلى مقدونيا، ليعيش ككاهن وعراف مصري هناك.

وهناك، بعث «حلما» إلى أم الإسكندر المقدوني، أوليمبيا، يوحي إليها فيه أن الإله أمون المصري سيزورها في حلمها، ويناكحها، وتحبل بذكر هو إبن «أمون». وحبلت أوليمبيا من أمون. وحين جاءها المخاض، كان نيكتانيبوس هذا قربها، وأمامه طاولة عليها كان رسم مدارات الكواكب، وكان يقرأ كتابة السماء، ويهيب بأوليمبيا أن تؤجل ولادتها. ولما لمع وميض غريب بين النجوم، يشير إلى بخت سعيد، نظر إليها وقال: «الآن، الآن، أيتها الملكة، لِدي من سيحكم العالم»! وأبرق برق، ووقع الطفل على المصطبة. (انظر/ي واليس بدج. السحر في مصر القديمة. ص ٩٥ - ٩٨، ١٩٦).

أيامها، في مصر، كانت قد تكونت وحدة غيبية بين إلهين فرعونيين: «رع» (إله الشمس)، و«أمون». ومن رموز «أمون ـ رع» النسر الذهبي. ويقال إن نيكتانيبوس بعث «نسراً» إلى حلم فيليب، زوج أوليمبيا، يخبره أن الإسكندر ليس ابنه، بل ابن أمون.

واجتاح الإسكندر المقدوني العالم القديم. وبنى الإسكندرية، وذاب، كغيره، في إرث هذه البقعة من العالم، وإرث فلسطين من جملته. وظل الإسكندر قلقاً من «هويته»، وممن هو بالضبط. فذهب إلى عراف في واحة «سيوه»، في صحراء ليبيا، كي يستجلي أمر نسبه، فقال له العراف إنه ابن الإله «أمون»، وليس ابن «فيليب». ولأن جذور أمون هذا في العبادة القمرية، أعتقد الإسكندر أنه إله قمري، وأصدر عملة عليها صورته وله «قرون» (كالهلال). وصار يرغب أن يخر له أتباعه ساجدين. مات في مصر، وقيل إن جثته نقلت إلى واحة سيوة، ودفن هناك، حيث يوجد معبد لأمون ـ رع.

ورأيت، قبل مدة، تقريراً في التلفزيون عن عالمة آثار تنقب في «سيوه» هذه عن قبره. ولكن، كما قال لي رسام فرنسي التقيت به في «لوديف»، منعوها من التنقيب، وسيجوا البقعة كلها!.

أعني أن من المبتذل أن يكون الواحد ابن أمه وأبيه، كما يقول نيتشه، يمكنني أن أكون ابن الإسكندر المقدوني هذا، كما كان الإسكندر نفسه ابن أمون، وليس ابن فيليب، ويمكنني أن أكون ابن بطليموس، أو المتنبي، أو جلال الدين رومي، أو الأغنية العميقة، أو وتر ربابة. كي أتجنب «قرون الثور»، أقول من المبتذل أن يكون الإنسان ابن أمه وأبيه.

ثم التقيت بهؤلاء الذين عادوا ولم يعودوا إلى الجبل، و«كانوا كما كانوا، سليقة كل نهر لا يفتش عن ثبات». وها أنا هنا، بعد كل هذه الرحلة، في بيت صغير وأبيض، مع ابني وزوجتي، وأنا هو، هذا القاعد تحت في زيتونة مقمرة، وتسحب الثعالب فراشه إلى بقعة في الخلاء، أنا

هو، هو نفسه. وهذا البيت الذي قرب الرمل بيته هو، هو نفسه. تحرسه زيتونة، أو ولدته أمه «في البستان الدافيء يحرسه حجر أخضر»، هذا هو، هو نفسه. ليس أسطورة أو محض خيال، بل خريفية من خراريف الجبل، والدير الجواني!

«وأرى...

أرى ما أريد من السلم..»

وهذه العجوز ذات السبعين عاماً أمي، منهمكة في زراعة ثوم، وبندورة، وبصل بلدي، حول البيت الذي قرب الرمل، في أحواض حجر بدائية، نفس أنواع النباتات التي كانت تزرعها في الدير الجواني، قبل أن تتزوج، وقبل أن يزرع لها أبي جنائن بيتنا باللوز، فهي ترجع نحو «ذاكرتها القديمة»، وتفيض حيوية، وأنا شفيت من السرطان، وتزرع لي، ولآثر، وبترا، كل مكونات صحن السلطة الذي سأحتفل به بالحياة. وفي الربيع، بين النحل، ونوّار اللوز، وطريق النمل، والشمس والعصافير، سأتعلم العزف على الربابة، وأقعد فوق بيتنا، وأعزف، مثل قدورة بالضبط، وأشرف على أودية عميقة ومقمرة، وجنائن مزروعة، وأختتم بهذا دورة أخرى من دورات التناسخ الأبدي، دورة أخرى، وخريفية جبلية أخرى. بداياتي نجمة مشعة، ونهاياتي كذلك.

ويوماً ما، سيعرف الجبل أنه اختار الثبات، كمدينة البتراء، واخترت الحركة، كالنار، والهواء، والأغنيات، والحكايات، وقصص الجن، ولا بد أن نتعارف ثانية، ولو في لحن ربابة!.

الجبل بدايتي الأولى، ودفعته إلى «أقصاه»: أوصلته إلى الإسكندر المقدوني، والمتنبي، وأمون، ورع، ورأس الرجاء الصالح، ولاو ـ تسو، وبوذا، وجلال الدين رومي، وبودلير، وماركيز، وميشيما، وغير هذا الكثير، والكثير جداً. وفيّ وصل هو إلى أقصاه، وصار هو، هو نفسه. وأنا أدري ببداياتي، فهل يتعرف هو، هذا الجبل نفسه، هل يتعرف، في ملامح وجهي التي تتكون كأسطورة غاية في الغرابة، على أحد أقاصيه، واحدى نهاياته؟ هل يتعرف هذا الجبل.. هل.. في ملامح.. على أحد.. أقصى، ونهاياته؟ أنا من غريرياته، وآن له الآن أن يراني، على هيئة غريريا تصعد الجبل نحو القمر الأحمر الذي يشبه إلهة مغمضة العينين وتتأمل فوق «خط الشفا»، ويقول لي: هناك، هناك، ألا ترى؟ هناك، سلالم الروح إلى سماء الحديد الفرعونية فاصعد!.

اللهم فلتشهد! اللهم فلتشهد! وليغنّ الجبل!